العلاقة بين التراث واللسانيات الحديثة
من منظور اللسانيين العرب

The relationship Between Arabic linguistic tradition and Modern Linguistics From the Perspective of Arab Linguists

عمر لحسن
جامعة باجي مختار- عنابة -الجزائر
dr.lahcenamor@gmail.com
Amor LAHCENE
University of Badji Mokhtar.
Annaba. Algeria

نسيمة قطاف
جامعة باجي مختار- عنابة -الجزائر
nassimaguettaf23@gmail.com
Nassima GUETTAF
University of Badji Mokhtar.
Annaba. Algeria

تاريخ الإرسال: 25/ 11/ 2022-تاريخ القبول:2022/12/29- تاريخ النشر: 2022/12/31

الملخص :

مثّل حضور التراث اللغوي العربي حضورا إشكاليا في الوعي اللساني العربي، قام أساسا على كيفية التعامل مع هذا التراث ومصيره أمام المعرفة اللسانية الوافدة؛ لذلك كان اللسانيون العرب مجبرين، أثناء انشغالهم بإعادة وصف اللغة العربية وفق النظريات اللسانية الحديثة، على اتخاذ موقف من هذا التراث. وقد تم ذلك في ضوء العلاقات الممكنة التي أقاموها بينه وبين اللسانيات. غير أن هذه العلاقات لم تكن لتسير في اتجاه واحد أو على وتيرة واحدة، بل اختلفت باختلاف المنطلقات التي اعتمدها اللسانيون. فكيف تمثل هؤلاء اللسانيون العلاقة بين المنجزين؟ وما العوامل المتحكمة فيها؟ هذا ما نحاول معالجته في هذه الورقة البحثية.

الكلمات المفتاحية : التراث؛ اللغة العربية؛ اللسانيات الغربية؛ المعرفة الوافدة؛ النظريات اللسانية.

Abstract :

Arabic linguistic tradition represents a problematic existence in Arabic linguistic consciousness. This is mainly due to how to deal with this heritage in comparison to contemporary linguistic knowledge. Preoccupied by redescribing the Arabic language according to modern linguistic theories, Arab linguists had to take position with regard to this tradition. Different points of view have emerged in the light of the way this tradition can be related to linguistics. This paper deals with the following questions: How do Arab linguists represent the relationship between these two achievements? What factors control this relationship?

Keywords : Arabic linguistic tradition - Arabic language - Western linguistics - new knowledge - linguistic theories.

مقدمة :

إن البحث في اللغة موغل في القدم؛ فمنذ أن وجد الإنسان وهو يتأمل ماهية اللغة ويحاول الكشف عن أسرارها إلى يومنا. وكانت الانطلاقة من التساؤل عن أصلها وكيفية نشأتها وعلاقة الكلمات بالأشياء وغيرها. وفي مراحل متقدمة أثمر النظر في هذه الظاهرة تراثا لغويا إنسانيا متنوعا وثريا بالتصورات اللغوية والمفاهيم والآراء المختلفة، أسهم في بلورته مختلف الحضارات الإنسانية قديما وحديثا. وهذا يعني أن اللسانيات بمفهومها العلمي الحديث تمثل، في الواقع، حقبة من حقب التفكير في اللغة، أو جزءا من التفكير اللغوي الإنساني الذي يمتد إلى عصور ما قبل الميلاد، ويعني أيضا أن اللسانيات الحديثة لها تاريخ كباقي العلوم والمعارف، وهو التراث اللغوي الإنساني.

1. التراث اللساني في اللسانيات الغربية

يحضر التراث اللغوي الإنساني ضمن اهتمامات كبار اللسانيين، بصفته تاريخا للسانيات الحديثة، فهي غربية المنشأ كما نعلم، وكانت لهم مواقف متباينة بشأن هذا التراث انطلاقا من طبيعة العلاقة التي تربطه باللسانيات الحديثة، وفق تصور إبستيمي / تاريخي صرف. فأما الذين أسسوا موقفهم على مبدأ القطيعة المعرفية بين مراحل الفكر العلمي، فأقروا أن ميلاد اللسانيات يعود على أقصى تقدير إلى القرن التاسع عشر؛ أي مع الدراسات التاريخية والمقارنة. وفي هذا السياق، يقرّ بلومفيلد أن الدراسة العلمية للغة لم تبدأ إلا منذ القرن التاسع عشر (عصر الدراسات التاريخية والمقارنة) عن طريق الملاحظة الواعية والواسعة. وبالتالي، ليست اللسانيات، حسبه، سوى في بداياتها[1]. وهو بذلك يلغي إسهام الفكر اللغوي القديم عبر تاريخه الطويل.

وأما الذين أسسوا موقفهم على مبدأ الاستمرارية التي تقرّ بتفاعل مراحل الفكر العلمي فيما بينها سلبا وإيجابا، وأن المعرفة تتأسس على مبدأ التراكم، باعتبارها سلسلة من المراحل المتعاقبة، وأن « العلم (بالمعنى الواسع) له تاريخه، شأنه في ذلك شأن الناس، وشأن المفاهيم العقلية والأخلاقية. والعلماء في كل جيل لا يبدأون من فراغ، ولكنهم يعملون من خلال وعلى أساس الوضع الذي ورثه علمهم، وورثه العلم بوجه عام، في ثقافتهم وفي عصرهم»[2]. وبناء على ذلك يرون أن اللسانيات تعود

نشأتها إلى قرون ما قبل الميلاد، وفي هذا السياق يقول روبينز «وعلم اللغة اليوم، مثله مثل فروع المعرفة الإنسانية الأخرى، ومثل كل مناحي الثقافات الإنسانية، عبارة عن نتاج لماضيه، وعبارة عن مادة لمستقبله»[3]. وفي السياق نفسه، يذهب جورج مونان إلى أن اللسانيات لم « تظهر فجأة في القرن التاسع عشر، كما تظهر العاصفة بطريقة مفاجئة في سماء صافية، بل مهّدت لظهورها آراء سابقة حول الكلام le langage على الأقل منذ مصر القديمة»[4].

وربما هذا ما شكل موقفا إيجابيا إزاء هذا التراث لدى عدد غير قليل من علماء اللسانيات الحديثة، وخاصة الروّاد منهم، فدو سوسير أبو اللسانيات الحديثة، كما يسميه البعض، لم ينكر جهود الذين سبقوه، فعلاقته بهم خاصة علماء القرون الثلاثة السابقة له، لم تكن «قائمة على الرفض المطلق أو القبول المطلق، فقد أفاد سوسير من كل الأفكار التي تدعم رؤيته الخاصة بقدر ما وجه النقد إلى الأفكار التي لم ير لها جدوى حقيقية في فهم الظاهرة اللغوية في أبعادها المختلفة وتكوينها المعقد»[5]. لقد شكلت جهود سابقيه خطوة حاسمة في تاريخ اللسانيات، على أساس أن التّحول المنهجي الذي كان يتوخاه سوسير نفسه «يقتضي -حسب الضرورة المنهجية- عودة تقويمية للفكر اللغوي السابق قاصدا من وراء ذلك إلى تحديد الإطار المعرفي للدراسة عبر الحقب الزمنية المختلفة»[6]. فلا غرابة أن يعدّ اكتشاف السنسكريتية، والنحو المقارن واللسانيات التاريخية، نقطة انطلاق للسانيات الحديثة. فقد ضم كتابه أفكارًا خلاّقة كان لها أثرها في تغيير مسار الدراسة اللغوية. ومما لا ريب فيه أن دو سوسير «لم يصل إلى تلك الآراء الخلاقة التي بثها في محاضراته من العدم. فظلال ويتني وكونديلاك (1715-1780) وبور رويال حاضرة في متن المحاضرات، وبخاصة مفهوم اعتباطية العلامة ...»[7]. وكذلك تشومسكي الذي أحدث تغييرا جذريا في اللسانيات الحديثة تأثر بالفكر العقلاني؛ فقد عاد في تصوره لطبيعة اللغة البشرية إلى آراء "ديكارت" و"نحاة بور رويال"، واستقى فكرة البنية العميقة والبنية السطحية من أفكار المفكر الألماني "وليام هومبولت"[8]. وهو يقر بتأثره بأفكار هؤلاء الفلاسفة، وما كتابه la linguistique cartésienne إلا اعتراف قاطع بذلك.

ولم يكن الاهتمام بالتراث حكرا على اللسانيين الغربيين فقط، بل أولى اللسانيون العرب أهمية خاصة للتراث اللغوي العربي؛ فقد أدركوا أهميته بشكل يكشف عن وعيهم بأهمية ما أفرزته قرائح العلماء العرب القدماء، وما انتهت إليه تجاربهم في معالجة قضايا اللغة العربية، لا على مستوى قيمة هذا التراث العلمية فحسب، إنما على مستوى أهمية هذا المنجز في سلسلة الدراسات اللغوية عند مختلف الشعوب وعلى مرّ العصور.

ونشير إلى أن الاهتمام بالتراث اللغوي العربي في العصر الحديث والمعاصر لم يكن وليد الانفتاح على اللسانيات الغربية الحديثة، بل يعود إلى بدايات عصر النهضة، وقد كان حضوره في الوعي النهضوي حضورا إشكاليا، باعتباره محور الأسئلة النهضوية؛ حيث احتلّ مساحة هامة ضمن اهتمامات أعلامها ومفكريها في إطار الجدل الفكري حول دور هذا التراث في تجديد الثقافة العربية، دون أن ننسى اهتمامات المستشرقين به شرحا وتفسيرا ودراسة وتحقيقا ونشرا. بينما كانت اهتمامات اللسانيين العرب بهذا التراث في إطار التأسيس للمعرفة اللسانية وتوطينها في الثقافة العربية، مما أعطى بعدا آخر للتراث اللغوي القائم على المواجهة بين المنظومتين (التراث واللسانيات الحديثة) لتلافي الوضع المعرفي المزدوج الذي آلت إليه الثقافة العربية[9].

وهي مواجهة تتحرك في إطار إشكالية الأصالة والمعاصرة، لذا كان النقاش منصبا على وظيفية التراث ودوره في مشروع التجديد في الثقافة العربية، ليتحول - فيما بعد- إلى البحث في موقع التراث وإجرائيته في البحث اللساني الحديث. ومهما اختلفت هذه الإشكالات، فإنها تمثل في الواقع السؤال الهاجس بالنسبة إلى اللسانيين العرب « ما الذي نستطيع أن نفعله بهذا الإنتاج اللغوي الضخم العظيم إلى جانب اعتزازنا به كفكر إنساني يستحق فعلا أن نعتز به؟»[10]

وقد تعددت مواقف اللسانيين واختلفت بشأن هذه القضية المحورية، فمنهم من أقصى اللسانيات الحديثة لحساب التراث، وهم التراثيون دعاة الأصالة، ومنهم من أقصى التراث لحساب اللسانيات الحديثة، وهم الحداثيون. وقد تولد عن هذين الموقفين موقفا آخر يبحث عن إضفاء شرعية لوجود المنجزين معا في الثقافة

العربية، وهم التوفيقيون، الذين حاولوا الربط بين التراث واللسانيات الحديثة بالبحث عن أوجه التقارب والتماثل بين المنجزين، بهدف تزكية أحدهما بالآخر.

وهناك موقف آخر ينبني على محاولة تجسير الهوة بين المنجزين وتدبير الاختلاف القائم بينهما لاستثمار المتاح من هذا التراث في إثراء النماذج اللسانية الحديث وتطعيمها. ويمكن القول إن هذه المواقف تحكمت بشكل أو بآخر في كيفية مقاربة اللسانيين العرب للتراث، والتي يمكن تصنيفها إلى صنفين:

1- مقاربة إقصائية.

2- مقاربة تأصيلية.

ونزعم أن منطلق هذه المواقف دوما "علاقة مع تراث". فكل اللسانيين العرب الفاعلين في الثقافة العربية على المستوى العملي، سواء الوصفيين أو التوليديين أو الوظيفيين، انطلقوا دوما في التأسيس لمعرفة لسانية حديثة من تحديد موقفهم من التراث، وهي مواقف مبنية -كما نرى- على وجهة نظرهم لطبيعة العلاقة القائمة بين المنجزين، أو لنقل إن التراث في علاقته باللسانيات الحديثة تأسيس لهذه المعرفة وتوطين لها في الثقافة العربية.

غير أن هذه العلاقة لم تكن مستقرة ولا ثابتة، بل هي متغيرة، تختلف باختلاف المواقف من هذا التراث؛ فلم يستطع اللسانيون العرب ترتيب هذه العلاقة وضبطها بكيفية تسهم في التأسيس لمعرفة لسانية رصينة.

2. العلاقة بين التراث واللسانيات الحديثة من منظور اللسانيين العرب :

1.2. علاقة التعارض والتباين:

شقت اللسانيات طريقها إلى الثقافة العربية في مرحلة استثنائية من حياة الأمة العربية، عندما كانت تبحث عن السبل الكفيلة بتجديد الثقافة العربية في مختلف جوانبها، وما صاحب ذلك من صراع بين التيار السلفي التقليدي والتيار الحداثي، حول التراث ودوره في مشروع التجديد الذي ترومه الأمة العربية، والذي شكل ما يعرف بـ "إشكالية الأصالة والمعاصرة".

وقد كان لهذا الوضع أثر كبير في توجيه النقاش العلمي الذي خاضه الوصفيون العرب، وهم يؤسسون للسانيات الحديثة في الثقافة العربية، والذي تمحور أساسا

حول وظيفية التراث اللغوي ودوره في التجديد. وبذلك طرحت اللسانيات في الثقافة العربية على أنها إشكال ثقافي بالأساس[11]، حيث وضع التراث في مواجهة اللسانيات الحديثة، وقد تطلب ذلك الاصطفاف إلى جانب أحد طرفي المواجهة.

على أن المواجهة هنا لم تكن بنية التجاوز المبني على الاتصال والانفصال في الآن نفسه، وإنما بنية الإقصاء. فقد أقصى التراثيون اللسانيات الحديثة بسبب الهوية، وليس هذا موضع حديثنا، بينما أقصى الوصفيون العرب التراث لعدم وظيفيته، وإجرائيته وقصوره عن أداء وظيفة التجديد التي كانوا يطمحون إليها. ويتضح ذلك فيما ذهب إليه عبد الرحمن أيوب في تجربته النقدية؛ حيث يقف عنده الجديد بإزاء القديم أو التقليدي فيقول:

«رأيت حين عهد إليّ بتدريس النحو العربي بدار العلوم أن في مجرد تفسير عبارات النحاة نوعا من الاجترار العقلي، لا يليق بعصرنا الذي نعيش فيه ولا بنهضتنا العقلية في هذا الدور الحاسم من أدوار الثقافة العربية. لقد بلغت الشكوى من النحو العربي مدى أصبح من غير الممكن أن يتجاهل، وكثر حديث الناس عن الحاجة إلى نحو جديد، وظن الكثير أن الأمر لا يعدو إعادة تدوين النظريات النحوية بأسلوب حديث، ولكن الأمر عندي أعمق من كل هذا. فنحو العربية شأنه في ذلك شأن ثقافتنا التقليدية في عمومها، يقوم على نوع من التفكير الجزئي الذي يعنى بالمثال، قبل أن يعنى بالنظرية...» [12].

وواضح أن عبد الرحمن أيوب يجعل إشكالية النحو العربية جزءا من إشكالية الثقافة العربية برمتها، والتي يصفها بالتقليدية وهي لا تليق، حسبه، بالعصر الذي نعيش فيه، ولا تستجيب لمشروع التجديد الذي توخاه العرب.

وينطلق الوصفيون من فرضية عامة مفادها أن «التراث النحوي لا يعتبر اليوم وصفا صالحا للعربية ولا أساسا في تعليمها وتعلمها»[13]. لذلك اتخذوا من نقد النحو العربي مدخلا منهجيا لتأسيس اللسانيات الحديثة في الثقافة العربية والدعوة إلى الوصفية، وهو ما يعبر عنه عبد الرحمن أيوب في كتابه "دراسات نقدية في النحو العربي"، حيث يقول: « ... على أني أشعر من ناحية أخرى أن هذه المحاولة تمهيد ضروري لثورة عقلية لا بد من نضوجها قبل أن يتفتح ذهن الجيل الجديد إلى البحث اللغوي الموضوعي»[14]. وهو كتاب يمثل دعوة صريحة إلى تبني

المنهج الوصفي القائم على الموضوعية والعلمية بنقده للنحو العربي القديم اقتداء باللسانيين الغربيين المحدثين[15].

والشأن نفسه بالنسبة إلى تمام حسان الذي انطلق من نقد النحو العربي في تقديمه للمنهج الوصفي، فيقول:

«لقد اتجهت نفسي إلى دراسة المعيارية والوصفية، حين رأيت الناس في معظمهم يشكون داء في النحو العربي لا يستطيعون تشخيصه؛ إذا أرادوا تشخيص هذا الداء، انصرفوا دون قصد إلى سرد أعراضه، فتكلموا في جزئيات النحو، لا في صلب المنهج، وشتان بين من يريد علاج الفلسفة التي انبنت عليها دراستها. لقد فكرت في أمر الدراسات العربية القديمة، من حيث المنهج لا من حيث التفاصيل، وجعلت تفكيري في أمرها، مستضيئا بمناهج الدراسات اللغوية الحديثة» [16].

فعلة النحو العربي تكمن في منهجه لا في المادة، وهو هنا يشير إلى اختلاف نقده عن نقود النهضويين التي استهدفت المادة لا المنهج، لذلك ينطلق من نقد المنهج المعياري الذي اعتمده النحاة. ويقدم المنهج الوصفي بديلا عنه. يقول في هذا السياق «فطنت إلى أن أساس الشكوى هو تغلب المعيارية في منهج حقه أن يعتمد الوصف أولا وأخيرا، وأن هذه المعيارية لتتضح في طريقة التناول، كما تتضح في طريقة التعبير في جمهرة كتب النحو والصرف والبلاغة، ولا يكاد تستثنى منها إلا القلة»[17].

ويكشف هذا التلازم الموجود بين الدعوة إلى الوصفية ونقد النحو العربية عن تصور الوصفيين العرب لطبيعة العلاقة القائمة بين التراث واللسانيات الحديثة، وهي علاقة تتأسس على مبدأ التعارض، فيقف المنهج الوصفي بإزاء المنهج المعياري/التقليدي؛ حيث «وضعوا مقولة (المعيارية)، بوصفها سمة من سمات الدراسات النحوية التقليدية، مقابلا منهجيا ونظريا لمقولة (الوصفية) التي هي سمة من سمات اللسانيات الحديثة ومنهجا دعا إليه اللسانيون العرب وتبنوه»[18]. كما يتضح هذا التصور في كتاب تمام حسان "اللغة بين المعيارية والوصفية"، الذي تأسس على فكرة التعارض بين المنهجين (المعياري والوصفي) وهو ما تكشف عنه مباحث هذا الكتاب، «وبنى هذا التقابل على أساس من افتراضه أن الدراسات النحوية القديمة هي دراسات معيارية تتعارض، في منهجها، مع المنهج الوصفي الذي تتسم به الدراسات الحديثة»[19].

كما يظهر أيضا في كتاب عبد الرحمن أيوب "دراسات نقدية في النحو العربي"، فعند تمييزه بين الدرس اللغوي القديم واللسانيات الحديثة، يشير إلى :

«وجود مذهبين في الدراسة؛ أحدهما يبدأ بالجزء وينتهي منه إلى الكل، كما يفعل البناء حين يضع حجرا فوق حجر حتى ينتهي إلى بناء كامل، وثانيهما ينظر إلى البناء الكامل ويبتنيه حجرا حجرا، دون أن يزيح أحدا من الأحجار عن موضعه من البناء، والصنيع الأول صنيع من يكوّن الشيء، أما الصنيع الثاني فصنيع من يصف تكوينه، دون أن يتدخل في شيء. وهذا الفرق بين من يبني البناء ومن يصفه هو الفرق نفسه بين المدرسة اللغوية التقليدية -ومنها مدرسة النحاة العرب- وبين المدرسة اللغوية التحليلية الحديثة التي تصف التركيب اللغوي دون أن تفصل أجزاءه بعضها عن بعض»[20].

ولا شك أن هذا التصور لطبيعة العلاقة بين المنجزين القائمة على مبدأ التعارض، جعل مقاربتهم للتراث مقاربة إقصائية تتأسس على إقصاء التراث لحساب اللسانيات الحديثة، وتقديم المنهج الوصفي بديلا للمنهج المعياري على منوال اللسانيين الغربيين الذين اقتنعوا أن «يكونوا وصافين للظاهرة اللغوية لا مفلسفين لها»[21].

ويتأسس تصور العلاقة بين التراث واللسانيات الحديثة عند الفاسي الفهري على مبدأ إبستيمي يقرّ بالانفصال والتباين، ومردّه إلى أن التراث واللسانيات الحديثة منظومتان أو نمطان فكريان مختلفان، لكل منهما سياقاته الفكرية والحضارية والمعرفية التي أنتجته. وبالتالي، فإن «مواجهة الفكر اللغوي القديم بالفكر اللساني المعاصر يؤدي إلى نوع من اللاتاريخية والأناكرونيزم (anachronisme)، إذ يضطرنا إلى الحكم على فكر نشأ في ظروف معرفية وتكنولوجية معينة بمقياس عصر وصل فيه العلم والتكنولوجيا إلى نتائج لم يعد ممكنا معها أن نأخذ بتحاليل القدماء برمتها»[22]. فهو يرى أن ما جاء به النحاة القدماء من مفاهيم وآراء وتحاليل لم يعد صالحا لمقاربة اللغة العربية، إن «الآلة الواصفة الموجودة عند القدماء ليس لها أي امتياز في وصف العربية، بل هي غير لائقة في كثير من الأحوال»[23]، فلا أحد يمكنه - حسبه - أن: « يستدل على الإرهاصات النظرية التي أتى بها القدماء فيما يخص الإعراب مثلا هي بالفعل ما يصلح لوصف اللغة العربية (...) لا يكفي أن نعرف فقط ما هو موجود في التراث، وإنما يجب أن نتخطاه إلى شيء آخر، وهذا الشيء الآخر هو ما وصلت إليه الأبحاث

العلمية الحالية»[24]. فاللساني ابن عصره مطالب بتجاوز هذا التراث إلى اللسانيات الحديثة، وبعبارة أخرى فاللساني عنده «لا يقول كلاما معادا أو مكرورا»[25].

وبناء على ذلك يطرح الفاسي الفهري التراث نظرية أو نسقا فكريا من ضمن اهتماماته في التعامل مع اللسانيات، فلا ضرورة منهجية ولا منطقية -حسبه- تفرض الرجوع إلى فكر الماضي وتصنيفاته لمعالجة مادة معينة[26].

2.2. علاقة الاحتواء:

غير أن هذا التصور سرعان ما يتغير مع التوفيقيين؛ أي لساني التراث الذين حاولوا الربط بين التراث واللسانيات الحديثة، أو ما يسمى في أدبيات الكتابة اللسانية العربية بلسانيات التراث[27]. وقد جاء مشروع الربط هذا ليعيد صياغة العلاقة القائمة بين المنجزين من منظور الوصفيين وبعض التوليديين، وهي علاقة قائمة -كما لاحظنا سالفا- على مبدأ التعارض أو التباين، مما أفضى بهم إلى إقصاء التراث لحساب اللسانيات الحديثة، لتتحول هذه العلاقة مع التوجه الجديد نحو الربط والتوفيق بين التراث واللسانيات الحديثة إلى علاقة احتواء قائمة على مبدأ التشابه والتناظر والتماثل. لذلك يمكن اعتبار هذا التصور ردا على الوصفيين العرب، وتحديدا على مشروعهم النقدي للنحو العربي وعلى مقاربتهم الإقصائية، والذي عرف تراجعا بعد الانفتاح على النظرية التوليدية التحويلية التي أعادت الاعتبار لبعض القضايا التي رفضها الوصفيون العرب، وعلى رأسها نظرية العامل ذات الأصول الفلسفية، وكذلك عودة تشومسكي إلى التراث الفلسفي الغربي الذي أفاد منه في تأسيس النظرية التوليدية التحويلية، كما وضح ذلك في كتابه "اللسانيات الديكارتية"، مفندا مزاعم عدم إجرائية التراث، وقصوره عن أداء وظيفة التجديد، مما حفز اللسانيين العرب إلى العودة إلى تراثهم، يقول حسام البهنساوي:

> «جاء كتاب اللسانيات الديكارتية ليكون مثالا حيا على اهتمام العلماء اللغويين المحدثين بضرورة العودة إلى التراث اللغوي، من أجل إظهار التقارب بين بعض جوانبه المهملة، وبين المفاهيم اللغوية الحديثة. لقد استطاع تشومسكي في هذا الكتاب أن يقف على عديد من العناصر التي تمثل التقاء واتفاقا بين معطيات نظريته التوليدية التحويلية وبين القواعد التي أرساها "ديكارت" فيما يعرف باسم قواعد بورل رويال»[28].

واقتداء بتشومسكي ولسانيين آخرين أمثال لوروا وليبشي وجورج مونان وكريستيفا وروبيتز، وغيرهم ممن ربط بين الفكر اللغوي القديم والحديث[29]، حاول اللسانيون العرب النسج على منوالهم، وراحوا يبحثون عن أوجه التشابه والتقارب الموجودة بين المنجزين.

ورغم تنوع مبررات قراءة التراث على ضوء اللسانيات الحديثة والبحث عن أوجه التشابه والتماثل[30]، فإن هذه الدراسات تنبني في مجملها على تصور عام لطبيعة العلاقة بين المنجزين، وهي علاقة احتواء قائمة على مبدأ التشابه والتماثل والتناظر على مستوى كثير من الأفكار والمفاهيم والمصطلحات، ذلك أن العرب استطاعوا، حسبهم، «الكشف عن كثير من أسرار الظاهرة اللسانية مما لم تهتد إليه البشرية إلا مؤخرا، بفضل ازدهار علوم اللسان في مطلع القرن العشرين»[31]. كما أن كثيرا من كتب فقه اللغة العربية من تراثنا اللغوي تظهر :

> «فضل السبق في كثير من القضايا والمباحث اللغوية، التي توصلت إليها مناهج البحث اللغوي الحديث، سواء أكانت هذه المناهج الوصفية البنيوية، التي تربعت على عرش الدراسات اللغوية الحديثة زمنا ليس بالقصير، منذ أن أصّل معطياته اللغوي السويسري دو سوسير، في أوائل القرن العشرين، أم كانت هذه المناهج التوليدية التحويلية، أحدث المناهج اللغوية وأدقها، والذي نال من الشهرة والذيوع والاهتمام قدرا كبيرا في الربع الأخير من القرن العشرين»[32].

لذلك انشغل كثير من اللسانيين العرب بالبحث عن أصول المفاهيم اللسانية الحديثة في هذا التراث باعتبار السبق التاريخي وباعتباره يحتوي كثيرا من هذه الأصول، وهو ما تكشف عنه دراسات كثيرة ومتنوعة[33]، توصلت جميعها إلى احتواء التراث على قضايا لسانية حديثة متنوعة، من ذلك "التحليل إلى المكونات المباشرة". فمعطيات التحليل إلى المكونات المباشرة «هي بعض ما استشعره النحويون العرب من الإعراب وصدروا عنه، حتى إنها من قبيل تحصيل الحاصل لدى المشتغلين بالعربية»[34]. وبعضهم خلص إلى أن الجوانب «التحويلية فيه [في النحو العربي] هي - في الحق- أغلب عليه لأن هناك أصولا مشتركة بين المنهجين، أهمها صدور النحو العربي -في معظمه- على أساس عقلي»[35]. ومن ذلك ظاهرة الحذف، وقضية العام والأصلية والفرعية، ويقر في موضع آخر بأن «مدرسة الكوفة قد عرفت بأنها وصفية

(...) وأن النحاة الأوائل كانوا يتناولون الظواهر على أساس شكلي وهو مبدأ من مبادئ النحو الوصفي»[36].

ويذهب كمال بشر إلى أن «الاختيار والضم معا يكونان ما يمكن أن نعده نظيرا لفكرة "النظم" عند عبد القاهر الجرجاني»[37]. ولا يسعنا المقام هنا لذكر مختلف الآراء القائلة بوجود تماثل وتقارب وتشابه بين المفاهيم التراثية واللسانية الحديثة، وكلها تنطلق من تصور عام مفاده أن التراث يحوي كثيرا من القضايا التي جاءت بها اللسانيات الحديثة لذلك قام هذا الاتجاه على ضرورة «إعادة قراءة التراث اللغوي العربي ومقارنته بنتائج الدرس اللساني الحديث بغية إثبات السبق أو المماثلة أو التفوق»[38].

3.2. علاقة الامتداد:

خلافا للتصورين السالفين يطالعنا تصور ثالث لطبيعة العلاقة القائمة بين المنجزين، وهي علاقة امتداد أو علاقة أصول وامتداد، وهو منحى أحمد المتوكل في مشروعه "بناء نحو وظيفي للغة العربية"؛ فقد شغل أحمد المتوكل على غرار بقية اللسانيين العرب، بالإجابة عن «السؤال الهاجس بالنسبة إلى اللساني الوظيفي السؤال التالي: ما الذي نستطيع أن نفعله بهذا الإنتاج اللغوي الضخم العظيم إلى جانب اعتزازنا به كفكر إنساني يستحق فعلا أن نعتز به؟»[39]. لذلك فقد تلازمت قراءة التراث اللغوي العربي مع مشروعه التأسيسي كما يصرح بذلك فيقول: «مشروع المنحى الوظيفي في البحث اللساني العربي مشروع ذو شقين متلازمين تلازم تزامني وتكامل، فإلى جانب دراسة ظواهر اللغة العربية ومحاولة تفسيرها من منظور وظيفي سعى الباحثون الوظيفيون المغاربة المتوكل (1977) و(1981) و (1982) و(1989)، الزهري (1998) في إعادة قراءة التراث اللغوي العربي نحوا وبلاغة وأصول فقه وتفسيرا»[40]. إذن، فمشروعه هذا لا يتوقف عند حدود معالجة قضايا اللغة العربية ودراستها صرفا وتركيبا، معجما ودلالة، فصحى ودوارج، وإنما يسعى أيضا إلى «مد الجسور لوصل البحث اللساني الوظيفي بالنظير التراثي للدلالة منظورا إليه في مجمله نحوا وبلاغة وفقه لغة وأصول فقه وتفسيرا»[41]. وهو بذلك يسعى إلى درء التعارض القائم بين المنظومتين (التراث اللغوي واللسانيات الحديثة) وتفنيد مقولة

التباين التي استند إليها بعض الوصفيين وبعض التوليديين، مما اقتضى منهم إقصاء هذا التراث لحساب اللسانيات الحديثة، فيقول :

«راجت في بعض الوقت في أدبيات اللسانيات البنيوية خاصة فكرة أن اللسانيات الحديثة علم جديد يباين مباينة القطيعة المعرفية ما سبقه من دراسات نحوية تقليدية من ضمنها الفكر اللغوي العربي القديم. وساعد في رواج هذه الفكرة أمران متلازمان:

(أ) إحساس لساني تلك الحقبة بأنهم آتون، تبعا لدي سوسير، بالجديد الجابّ لما قبله؛

(ب) رد "هجمة" أنصار القديم الناقمين لجدة اللسانيات واعتبارها لا تَعْدُو أن تكون "بديلا مصطلحيا" للدرس اللغوي القديم ذي الكفاية الثابتة على مدى العصور»[42].

ويستند في تفنيد هذه المزاعم على رؤية إبستيمية تتأسس على أطروحة التطور في مقابل أطروحة القطيعة، وعلى ضوئها يفترض أن «اللسانيات الحديثة ليست إلا حقبة من حقب تطور فكر لغوي واحد بدأ حين بدأ الإنسان يفكر في اللغة وسيمتد امتداد التفكير في اللغة»[43]. لذلك حاول المتوكل البرهنة على أن التراث اللغوي العربي تراث وظيفي في عمقه، وحاول الدفاع عن أطروحة أن «الفكر اللغوي التراثي في عمقه فكر وظيفي من حيث مفاهيمه ومنهجه وقضاياه»[44]، وأن:

«علاقة الدرس الوظيفي الحديث بهذا الفكر علاقة امتداد لأصل يتيح استيحاء واستثمار ما يمكن استيحاؤه واستثماره منه»[45]. وقد توصل في قراءته للتراث المبنية على منهجية علمية مضبوطة وواضحة المعالم تنبذ القطيعة المعرفية والإسقاط، توصل إلى أن «التنظير التراثي للدلالة تنظير وظيفي مفاهيم ومنهجا ومقاربة، يحرز من مقتضيات النظرية الوظيفية المثلى ما يتيح إحرازه المحيط الفكري الذي أفرزه»[46]. لذلك فالتراث عنده ماض مهتد يأخذ أوضاعا ثلاثة:

«أولا: يمكن أن يعد تاريخا للفكر اللساني الوظيفي؛

ثانيا: يمكن أن يعتمد مرجعا للبرهنة والحجاج؛

ثالثا: يمكن أن يكون مصدرا يمتح منه كلما دعت الحاجة إلى ذلك»[47].

وهو بذلك يهدف إلى تجسير الهوة بين اللسانيات الحديثة ممثلة في "نموذج النحو الوظيفي" والتراث خاصة الدلالة منه، وتيسير الاختلاف القائم بينهما، فيجعل هذا التراث ماضيا ممتدا، أي أن هذا التراث ما هو إلا حقبة هامة من الفكر

اللغوي الإنساني في توجهه الوظيفي[48]، وأن العلاقة بينهما علاقة امتداد أو اتصال واستمرار ، وهو بذلك لا يستغني عن هذا التراث، وإنما يوظفه في تطعيم الأنموذج الوظيفي وتدعيمه بالمتاح من هذا التراث باعتبار وظيفته كما ذكرنا، لأنه يعي جيدا حدود الاختلاف الإبستيمي القائم بين الأنموذجين، لذلك صنف التراث الدلالي العربي بأنه وظيفي في عمقه حتى يتسنى له تفعيله في وقتنا الراهن واستثمار المفاهيم ذات القدرة الإجرائية التي ما تزال صالحة في مقاربة الظاهرة اللغوية وظيفيا. ويدعم المتوكل مذهبه هذا بصنيع كبار اللسانيين أمثال تشومسكي، وكورود وجريماس، الذين بينوا «بالملموس أن اللسانيات الحديثة ليست إلا حقبة من حقب تطور فكر لغوي واحد بدأ حين بدأ الإنسان يفكر في اللغة وسيمتد امتدا التفكير في اللغة»[49]. كما يدعمه أيضا بإشادة جون ماكنزي وتزكيته لهذا الإجراء الذي سلكه المتوكل بقوله: «يستهدف كتاب الأستاذ (المتوكل "1989") تطبيق النحو الوظيفي كما يقترحه سيمون ديك (ديك 1978) في تحليل ظواهر اللغة العربية الحديثة المعيار (...) وللكتاب أهمية إضافية يستمدها من محاولته إدماج مقترحات الفكر اللغوي العربي القديم في نظرية النحو الوظيفي بطريقة تغني الطرفين»[50]. وقد راهن المتوكل في مختلف أعماله على أهمية اقتراحات القدماء وضرورة استثمارها في وصف اللغة العربية وفق "أنموذج النحو الوظيفي" بكيفية تعكس رؤيته لطبيعة العلاقة القائمة بين التراث واللسانيات الحديثة، يحركها وعي إبستيمي مؤسس على مبدأ الاستمرارية والاتصال.

خاتمة:

تطلب انشغال اللسانيين العرب بإعادة وصف اللغة العربية وفق النماذج اللسانية الحديثة تحديد موقفهم من التراث بشكل يكشف عن تصورهم لطبيعة العلاقة القائمة بين التراث واللسانيات الحديثة.

لم يستطع اللسانيون العرب ترتيب العلاقة القائمة بين التراث واللسانيات الحديثة لاختلاف المنطلقات؛ فمنهم من انطلق من إشكالية الأصالة والمعاصرة، مما تطلب ضرورة الاصطفاف وراء أحد المنجزين بحكم علاقة التعارض بينهما، أو التوفيق بين المنجزين بحكم علاقة التماثل والتشابه بينهما في كثير من الآراء والمفاهيم والمصطلحات. ومنهم من انطلق من رؤى إبستيمية بعضها مؤسس على مبدأ القطيعة

المعرفية ومن ثم أقروا علاقة التباين والانفصال بين المنظومتين، وبعضها مؤسس على مبدأ الاستمرارية والتطور ومن ثم أقروا علاقة الامتداد والاتصال.

إن ترتيب علاقة ممكنة للسانيات بالتراث اللغوي يقتضي في البداية قراءة إبستمولوجية واعية بحدود الاختلاف بينهما، والنظر إلى هذه العلاقة باعتماد أسس معرفية / إبستيمية محددة وموضعتها في سياق تاريخ الأفكار، أو التأريخ للفكر اللغوي العربي بوصف هذا التراث صورة من صور هذا التاريخ أو حقبة من حقب التفكير اللغوي الإنساني.

الإحالات :

[1] ينظر مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة، تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2010، ص95.

[2] روبينز ر. هـ، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، رقم 277، الكويت، نوفمبر، 1997، ص 17.

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص 17.

[4] Voir G. Mounin: Histoire de la linguistique des origines au XXème siècle, Paris, PUF, 1968, p 7.

[5] جوناتان كلير، فرديناند دي سوسير، أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات، ترجمة: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط 1،2000، ص 31.

[6] أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص34.

[7] أحمد يوسف، اللسانيات العامة وواقع اللغة العربية، مكانة اللغة تجديد الثقافة العربية، دون أن ننسى اهتمامات المستشرقين به شرحا وتفسيرا ودراسة وتحقيقا ونشرا، ولنا عودة إلى هذه القضية في موضع لاحق. العربية بين اللغات العالمية، نصوص أعمال الندوة 6-8 نوفمبر 2000، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر،2001، ص 254.

[8] ينظر مصطفى غلفان، اللسانيات التوليدية من النموذج المعيار إلى البرنامج الأدنوي: مفاهيم وأمثلة، عالم الكتب الحديث، إربد، ط 1، 2010، ص 5.

[9] ينظر نسيمة قطاف، اللسانيات العربية ورهانات التموقع الإبستيمي، مجلة آفاق العلوم، جامعة زيان عاشور، الجلفة، السنة 3، المجلد 5، جوان 2018، ص 266.

[10] أحمد المتوكل، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، مكتبة دار الأمان، الرباط، ط1، 2006، ص 212.

[11] ينظر المرجع السابق، ص 263.

[12] عبد الرحمن أيوب، نقد النحو العربي، نشر وتوزيع مؤسسة الصباح، ص 5.

[13] عبد القادر المهيري، نظرات في التراث اللغوي العربي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993، ص 106.

[14] عبد الرحمن أيوب، دراسات نقدية في النحو العربي، ص و.

[15] نشير هنا إلى أن نقد النحو العربي لم يرتبط وجوديا بالنقود الغربية، بل الإشكالية مطروحة منذ زمن، نستطيع العودة بها إلى ابن مضاء القرطبي في كتابه، "الرد على النحاة"، غير أن ما

يميز نقود الوصفيين عن الجهود السابقة استنادهم إلى اللسانيات الغربية الحديثة في النقد واستهدافهم المنهج المعياري وتقديم المنهج الوصفي.

[16] تمام حسان، اللغة بين الوصفية والمعيارية، ط4، عالم الكتب، القاهرة، 2001، ص 11.

[17] المرجع نفسه، ص 12.

[18] فاطمة البكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، دراسة في النشاط اللساني العربي، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2004، ص 69.

[19] المرجع نفسه، ص 93.

[20] عبد الرحمن أيوب، دراسة نقدية في النحو العربي، ص 2-3.

[21] المرجع نفسه، ص هـ

[22] الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، ص 61.

[23] المرجع نفسه، ص 61.

[24] الفاسي الفهري، حوار اللغة، إعداد حافظ إسماعيلي علوي، منشورات زاوية، الرباط، ط 1، 2007، ص113.

[25] الفاسي الفهري، البناء الموازي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 1، 1990، ص 1.

[26] ينظر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، ص 58.

[27] ينظر مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، ص 92.

[28] حسام البهنساوي، أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994، ص 2.

[29] المرجع نفسه، ص 2.

[30] لمزيد من التفصيل ينظر: مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، سلسلة أطروحات رقم 4، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، دت، ص 140 وما بعدها. وينظر: حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية، ص 145 وما بعدها.

[31] عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص 24.

[32] حسام البهنساوي، أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، ص 7.

[33] لمزيد من التفصيل، ينظر: حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية، ص 135.

[34] نهاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 1980، ص 34.

[35] عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1986، ص 143.

[36] المرجع نفسه، ص 59/58.

[37] كمال بشر، التفكير اللغوي بين القديم والجديد، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005، ص 187.

[38] حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية، ص 189.

[39] أحمد المتوكل، المنحى الوظيفي في النحو العربي، الأصول والامتداد، دار الأمان، الرباط، ط1، 2006، ص 212.

[40] أحمد المتوكل، المنحى الوظيفي في النحو العربي، ص 165.

[41] المرجع نفسه، ص 15.

[42] المرجع نفسه، ص 167-168.

[43] أحمد المتوكل، المنحى الوظيفي في النحو العربي، ص 168.

[44] المرجع نفسه، ص 15.

[45] المرجع نفسه، ص 15.

[46] المرجع نفسه، ص 212.

[47] المرجع نفسه، ص 212.

[48] المرجع نفسه، ص 213.

[49] المرجع نفسه، ص 168.

[50] المرجع نفسه، ص 214-215.

قائمة المراجع:

1- بشر كمال، التفكير اللغوي بين القديم والجديد، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005.

2- البكوش فاطمة، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، دراسة في النشاط اللساني العربي، ط1، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، 2004.

3- البهنساوي حسام، أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994.

4- حسان تمام، اللغة بين الوصفية والمعيارية، ط4، عالم الكتب، القاهرة، 2001.

5- حساني أحمد، مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.

6- الراجحي عبده، النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1986.

7- روبينز ر.ه، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، رقم 277، الكويت، نوفمبر 1997.

8- عبد الرحمن أيوب، نقد النحو العربي، نشر وتوزيع مؤسسة سعاد الصباح، الكويت.

9- علوي حافظ إسماعيلي، اللسانيات في الثقافة العربية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2009

10- غلفان مصطفى، اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، سلسلة أطروحات رقم4، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، دت.

11- غلفان مصطفى، في اللسانيات العامة، تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2010.

12- غلفان مصطفى، اللسانيات التوليدية من النموذج المعيار إلى البرنامج الأدنوي: مفاهيم وأمثلة، ط 1، عالم الكتب الحديث، إربد، 2010.

13- الفاسي الفهري عبد القادر، حوار اللغة، إعداد حافظ إسماعيلي علوي، ط 1، منشورات زاوية، الرباط، 2007.

14- الفاسي الفهري عبد القادر، البناء الموازي، ط 1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1990.

15- قطاف نسيمة، اللسانيات العربية ورهانات التموقع الإبستيمي، مجلة آفاق العلوم، جامعة زيان عاشور، الجلفة، السنة03، المجلد 05، جوان 2018.

16- كلير جوناتان، فرديناند دي سوسير، أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات، ترجمة: عز الدين إسماعيل، ط 1، المكتبة

17- المتوكل أحمد، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، ط1، مكتبة دار الأمان، الرباط، 2006.

18- المتوكل أحمد، المنحى الوظيفي في النحو العربي، الأصول والامتداد، ط1، دار الأمان، الرباط، 2006.

19- المسدي عبد السلام، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984.

20- المهيري عبد القادر، نظرات في التراث اللغوي العربي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

21- الموسى نهاد، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980.

22- يوسف أحمد، اللسانيات العامة وواقع اللغة العربية، مكانة اللغة تجديد الثقافة العربية، العربية بين اللغات العالمية، نصوص أعمال الندوة 6-8 نوفمبر 2000، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر،2001.

23- Mounin Georges, Histoire de la linguistique des origines au XXème siècle, Paris, PUF, 1968.